

غزو الزبارة والبحرين

كان آل خليفة حكاماً على البحرين والزبارة ، وفي سنة ١٢١٥ هـ . استولى سلطان بن أحمد ، حاكم مسقط ، على البحرين دون قتال وأخذ الشيخ محمد - شقيق حاكم البحرين والزبارة الشيخ سليمان بن أحمد آل خليفة - إلى مسقط رهينة .

وفي سنة ١٢٢٥ هـ . توفي الشيخ محمد ، فما عاد آل خليفة يخشون انتقام حاكم مسقط منه ، فاستنجدوا بالإمام سعود وقاتلوا المسقطيين وأجلوهم عن البحرين . ويقول بعض المؤرخين : إن إجلاء سعود لجيش مسقط عن البحرين هو السبب الأول للخصومة بين حكام مسقط وحكام السعودية .

ويزعم النبهاني إن الإمام سعود أمر عامله ابن عفيصان أن يمنع آل خليفة من الإستيلاء على الحكم والسلطة في البحرين ، فعاد آل خليفة إلى الزبارة وأصبح ابن عفيصان أميراً على البحرين ، ومقر إقامته في « قلعة الديوان » .

ويقول ابن بشر ، في أخبار سنتي ١٢٢٤ و ١٢٢٥ هـ . إن الإمام سعود بلغته مخالفات وقعت من آل خليفة وخاف أن يقع أكبر منها فأرسل اليهم أحد عماله وأجبرهم على الهجاء إلى الدرعية ، فلما وصلوها (قرأ عليهم سعود ما حدث منهم ثم اعتقل رؤساءهم ، وردّ أبناءهم وبقية الرعية إلى بلادهم ، وكان سعود لما قبض عليهم أخذ جميع خيلهم ونجائبهم وغير ذلك من الشوكة التي لهم في البحرين

والزبارة ، ثم أمر فهد بن عفيصان أن يعبر إلى البحرين ضابطاً له وجعله بيت مال (.

ما هي المخالفات التي صدرت عن آل خليفة فأثارت غضب الإمام سعود ؟
لم يوضح لنا ذلك ابن بشر ، ولكن مؤلف اللع يزعم إن الإمام سعود قال لمشايخ آل خليفة :

— أريد أن أرسل بعض العلماء إلى جزيرة البحرين ، يعلمون الناس الدين ويفهمونهم كيفية السلوك فيه ، ولا بدّ من ذلك .

قالوا : نحن نعلمهم ، إذ عندنا من هو ماهر في الدين !
قال : لا بدّ من إرسال علماء من نجد ، فإنهم أثبت منكم في معالم التوحيد !
فرضوا بذلك .

وجاء علماء من نجد إلى البحرين ، فرأوا أن آل خليفة يظلمون أهل البحرين وهم من العتوب ، فشجعوا الأهالي على إرسال مندوبين عنهم إلى الدرعية يشكون ويتظلمون ، فلما استمع سعود إلى شكاواهم أحبّ أن ينصفهم فنزع عنهم أيدي آل خليفة .

استعادة البحرين :

كان غرض سعود من استبقاء كبار آل خليفة رهائن عنده في الدرعية أن يمنع أقرباءهم وأنصارهم في البحرين من الفتنة والتمرد ، ولكن الأبناء والأقرباء لم يكتفوا لما قد يحل بأبائهم وعمومتهم الذين في الدرعية ، فهربوا بنسائهم وأموالهم من الزبارة والتجأوا إلى صاحب مسقط — عدوهم السابق — وطلبوا منه النصرة . فأمدّهم بمراكب كثيرة فجاؤوا إلى الزبارة ليلاً وأخرجوا منها (بقية رجالهم ، وما فيها من المتاع والمال .. ثم ساروا إلى البحرين ، ونازلوا فهد بن عفيصان والمرابطة الذين في قصر المنامة ، وهم نحو ثلاثمائة رجل ، فحصرهم .. أياماً ، ثم أخرجوهم بالأمان على دمائهم ، فأمسكوا منهم فهد بن عفيصان وأمسكوا معه ستة عشر رجلاً ، واعتقلوهم رهينة في رجالهم الذين في الدرعية ، وتركوا الباقيين (.

ولما بلغ ذلك سعود دعا اليه كبار آل خليفة الذين عنده فالتمسوا منه أن يطلق سراحهم ليذهبوا الى البحرين ويقنعوا أبناءهم بالسمع والطاعة لسعود ، ففعل (وارتحلوا من الدرعية ، وبعث معهم سعود شوكة من الجيش ، فلما وصلوا الى ناحيتهم طلبوا من بنيتهم الموافقة على ما بايعوا عليه سعود ، فأبوا عليهم ، فرجعوا الى الدرعية ، وأقاموا فيها حتى رجع سعود من الحج) ، وكان ذلك سنة ١٢٢٦ هـ . ، فأذن سعود لآل خليفة بالرجوع الى بلادهم .

وقابل آل خليفة صنيع سعود بمثله ، فأطلقوا الرهائن المحتجزين في البحرين ، وعلى رأسهم ابن عفيصان .

رواية النباني :

يقول النباني إن آل خليفة أرسلوا سرأ الى ابن أختهم الشيخ عبد الرحمن آل راشد أن (يحتال في أخذ البحرين ، فاستنجد بأمر مسقط ثم بحاكم فارس « جبارة » وجنّد بمساعدتها المالية وغيرها جنداً .. ثم أخبر آل خليفة الذين في الزبارة بما فعله .. فخرجوا واجتمعت جموعها وحاربوا ابن عفيصان وأخرجوه هو وقومه من البحرين ، فسار ابن عفيصان الى قطر ، ونزل عند رحمة بن جابر الجلامه ، في موضع يقال له الخوير .)

ولما بلغ سعود بن عبد العزيز ما كان .. تذاكر مع آل خليفة المعتقلين عنده الأمر ، فذهب بعضهم الى البحرين فلما وصلوها أظهر الشيخ عبد الرحمن ، بإشارة من آل خليفة ، الجفاء والغضب ، فقال له رجال سعود : كيف يتجرأ العيال على أخذ البحرين وآباؤهم في قبضة الإمام ؟

فقال لهم : دونكم والعيال ..

فقال شبان آل خليفة : إنهم أخذوا البحرين لأنفسهم ، ولا حاجة لهم بآبائهم وعمومتهم ..

فغضب رجال سعود وقالوا : لو يمكن للخف والحافر أن يبطأ البحرين لنثرناها حصة حصة .

فقال الشيخ عبد الرحمن : لو يمكن لغيبيت الجابري - أي سفنه - أن تطل^١ على الدرعية لجعلنا عاليها سافلها ولما تركنا سعود ينام بها ليلة سوداء .. فلما رجع رجال سعود وأخبروا الإمام بما جرى أيس من البحرين ، وأطلق سراح آل خليفة المعتقلين عنده .
بين آل خليفة ورحمة :

صمم آل خليفة على الثأر لأنفسهم من ابن عفيصان ومن رحمة بن جابر الذي ساعده عليهم ، فذهبوا إلى الخوير حيث يقيم .. رأى رحمة قوة سفن آل خليفة ، فنصح لابن عفيصان بعدم مهاجمتها ، فظن ابن عفيصان به الخوف ، فأمر رجلاً من بني قومه بأن يتحرش للحرب بهذا الشعر النبطي :

(لا خير في رجل يجرّ جريرة وإذا تضايق دربها خلاها)

فغضب رحمة .. وذهب بسفنه للقتال .. وانكسر في المعركة البحرية .. وأصيب بجراحات في يده اليمنى ..^(١)

وقد تحدث ابن بشر عن المعركة بين آل خليفة وبين ابن عفيصان ورحمة ، في أخبار سنة ١٢٢٦ هـ . فقال ان مقتلة عظيمة في البحر وقعت بين عشائر آل خليفة وبين طوارف المسلمين الذين في ناحيتهم ، وهم : (رحمة بن جابر بن عذبي ، أمير خوير حسان المعروف ، وأبا حسين ، أمير الحويلة - البلدة المعروفة في قطر - وإبراهيم بن عفيصان ، أمير شوكة المراقبة من أهل نجد وغيرهم .

(١) يقول النبهاني إن رحمة ازداد غيظاً واشتعلت نار الحسد والبغضاء في نفسه على آل خليفة ، فصمم على قطع طرق البحرين بالنهب والقتل ، من الباعة والتجار .. ولما أخفق في عمله توجه إلى إمام مسقط وأغراه بأخذ البحرين .. وهكذا جرت - عام ١٢٣٠ هـ - معركة بين مسقط والبحرين انكسر فيها إمام مسقط السيد سعيد .

ثم أعادت مسقط الحرب ، فتم بينهما وبين البحرين صلح ، يدفع البحرانيون بمبلغاً من المال سنوياً إلى إمام مسقط .

وذلك أن هؤلاء سار بعضهم على بعض في السفن ، ف وقعت الملاقاة في البحر قرب البحرين ، وذلك في شهر ربيع الأول ، فوقع قتال شديد وكثرت القتل بين الفريقين ، ثم اشتعلت النار في السفن وجبخانها ، ومات بينهم خلق كثير قتلاً وحرقاً وغرقاً ، فاحتوت السفن بما فيها ، واحترق لابن جابر و (أبا حسين) ومن معهم من المسلمين سبعة مراكب ، واحترق لآل خليفة نحو ذلك .

وقتل من أهل البحرين وأتباعهم أكثر من ألف رجل ، منهم دعيج صاحب الكويت ، وكان من أعوان أهل البحرين ، وقتل راشد بن عبد الله بن خليفة وغيرهم من الأعيان ، وقيل ان الذي هلك من البحرين وأتباعهم ألف وأربعمائة رجل .

وقتل من المسلمين نحو مائتي رجل ، منهم (أبا احسين) أمير الحويلة (١) .

(١) يقول النبهاني ان رحمة لم يتعظ وظل مصمماً علي النار .. وفي سنة ١٢٤٢ هـ دخل القطيف بسفينة له تسمى (غطروشة) ، وقد وقعت معركة بينه وبين سفن آل خليفة وكانت رحمة قد كف بصره في آخر عمره ، فجعل يسأل قومه عن السفن الهاجمة عليه وعن رئيسها فيخبرونه ، حتى لاصقته سفينة الشيخ أحمد بن سلمان ، فتجالد الفريقان بالسيوف واشتد بينهم الضرب والطعان ، وكان بجانب رحمة ابن له صغير ، وعبد المسمى « طرار » واقف على رأسه ، حتى وصل أعداؤه الى الصاري ثم الى الحاشية ثم الى سطح مؤخر السفينة ، وكان حينئذ جالساً في خزانة السفينة ، فأخذ ابنه وجعله في حجره ، ثم عمد الى نار في رأس التارجيلة التي كان يشرب منها الدخان فألقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته ، فانفجرت السفينة بهم ، وقتل هو وابنه ومن معها ، متأسياً بقول الزباء : بيدي لا بيد عمرو . وتسمى هذه الواقعة : ذبحة الجلامه .